عبد الرحمن ذو النور بن ربيعة الباهليّ

فاتح بلنجر والبيضاء من بلاد الخزر

تـأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد 24 – ص 83 – 92

1394هـ - 1974م

— ١ —

عبد الرحمن ذو النور بن ربيعة الباهلي

فاتح بَلَنْجَر (١) والبيضاء (٢) من بلاد الخَزَر (٣)

اللواء الركن محمود شيت خطاب

الصحابي :

هو عبد الرحمن بن ربيعة بن يزيد بن سَهْم بن عمرو بن ثعلبة بن غَنْم بن قُتَيْبَة بن مَعْن بن مالك بن أَعْصُر الباهلي ، نسب الى باهِلة بنت صَعْب بن سَعْد بن قَيْس عَيْلان (٤) ، وهو أخو سلمان بن ربيعة الباهلي .

(١)- بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٨) .

(٢) - البيضاء : اسم يطلق على مواضع كثيرة ، والمراد هنا : مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٣٥) .

(٣) - بلاد الخزر : هي بلاد الترك خلف مدينة باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٣٢) .

(٤) - انظر أسد الغابة (٣/٢٩٣) وجمهرة أنساب العرب (٢٤٤—٢٤٧) .

كان عبد الرحمن صحابياً جليلاً ، إذ كانوا لايؤمرون في الفتوح إلا الصحابة (١) أدرك النبي صلى الله عليه وسلم بسنه ولم يسمع منه ولا روى عنه (٢) .

والظاهر أنه أسلم متأخراً ، لذلك لم يشهد غزوات النبي صلى الله عليه وسلّم ولم يجاهد تحت لوائه ، فنال شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت راية الرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه .

جهـــاده :

١ ــ كان العراق الميدان الأول لجهاد عبد الرحمن ، فحين وجّه عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقّاص الى (القادسـية) جعل على قضاء الناس عبد الرحمن وجعله على قسمة الفئ أيضاً (٣) وذلك سنة أربع عشرة الهجرية (٦٣٥م) ، مما يدل على تفقهه في الدين وعدله واستقامته وأمانته .

ولكن عبد الرحمن لم يقنع بواجبه الأداري ، بل باشر القتال في (القادسية) وطارد الهاربين من الفرس بعد انتصار المسلمين في (القادسية) وقتل أحد قادة الفرس الكبار (٤) على الرغم من واجباته الأخرى التي تثقل كاهله ، فبرز في هذه المعركة الحاسمة بطلاً لايهاب الردى كما برز في تحمل واجباته الأدارية أيضاً .

وشهد معارك الفتح الأخرى في العراق بعد (القادسية) تحت لواء سعد بن أبي وقاص ، فلما انساحت قوات المسلمين في بلاد فارس ، رافق عبد الرحمن هـــذه القوات ، فكان على مقدمة سُراقة بن مالك في فتح (باب الأبواب) (٥) ولما أطل

(١) ـ الأصابة (٣٠٩/١) و (٥٣/٣) و (١٥٩/٤) .
(٢) ـ الاستيعاب (٨٣٢/٢) وأسد الغابة (٢٩٣/٣) .
(٣) ـ الطبري (٩/٣) وابن الأثير (٤٥٣/٢) والأصابة (١٥٩/٤) والاسنيعاب (٨٣٢/٢) .
(٤) ـ ابن الأثير (٤٨٣/٢) وهو ابن الهربذ .
(٥) ـ باب الابواب : ويقال لها (الباب) ، ميناء كبير على بحر الخزر ، انظر التفاصيل في معجـــم البلدان (٩/٢) . ويسمى اليوم : دربند .

عبد الرحمن على (باب الأبواب) والملك بها يومئذ شهريار ، كاتبه شهريار واستأ منه على أن يأتيه ، فأمنه عبد الرحمن والتقيا ، فقال الملك :

« إنني بأزاء عدو كَلِب (١) وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ، ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعينهم على ذى الحسب ، ولست من القَبَج (٢) ولا الأرمن في شئ ، وانكم قد غلبتم على بلادي وأمتي ، فأنا منكم ويدي مع أيديكم وجزيتي اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تسومونا الجزية فتوهنونا لعدوكم » . فقال عبد الرحمن : « فوقي رجل قد أظلك ، فسر إليه » (٣) .

وسير عبد الرحمن الملك شهريار الى سُراقة بن عمرو ، فلقيه بمثل ذلك . وقبل منه سراقة ذلك وقال : « لابد من الجزية ممن يقيم ولا يحارب العدو » ، فأجابه الملك إلى ذلك . وكتب سراقة في دلك إلى عمر بن الخطاب ، فأجازه عمر واستحسنه (٤) .

وقد كان عبد الرحمن أحد الشهود على العقد الذي عقده سراقة مع الملك شهريار كما كان أخوه سلمان شاهداً على ذلك العقد أيضاً (٥) .

وفي هذه الوثيقة وافق سراقة على وضع الجزية عن الذين يقاتلون أعداء المسلمين جنباً لجنب مع المسلمين ، وابقى الجزية على القاعدين من أهل البلاد (٦) .

---

(١) ـ كلب : شديد ، شرس ، سفيه .

(٢) ـ القبج : أمة من الامم التي تعيش في منطقة بلاد الخزر ، ولم أجد تفاصيل ذات فائدة عن أصل هذه الأمة .

(٣) ـ الطبري (٣/٢٣٦) وابن الأثير (٣/٢٨) وانظر ابن خلدون (٢/٩٨٣) .

(٤) ـ الطبري (٣/٢٣٦) وابن الأثير (٣/٢٨) .

(٥) ـ الطبري (٣/٢٣٧) .

(٦) ـ انظر التفاصيل في سيرة : سراقة بن عمرو في (قادة فتح بلاد فارس) ص (٢١٠) وهذا دليل على أن الجزية كانت ضريبة الدفاع عن المغلوبين أو هي (بدل نقدي) عن الخدمة العسكرية كما نطلق عليها اليوم في المصطلحات العسكرية الحديثة .

٢ ـ ومات سراقة ذو النور بن عمرو سنة اثنتين وعشرين الهجرية (١) (٦٤٢م) فاستخلف عبد الرحمن قبل موته وحين بلغ عمر بن الخطاب موت سراقة واستخلافه عبد الرحمن ، أقر عبد الرحمن على فَرْج (٢) (الباب) وأمره بغزو التّرك (٣) .

وخرج عبد الرحمن بالناس حتّى قطع (الباب) ، فقال له الملك شهريار : « ماذا تريد أن تصنع ؟ ! » قال : « أريد (بَلَنْجَر) والتّرك » . قال : « إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب » ! ، قال عبد الرحمن : « لكنا لانرضى منهم ذلك حتى نأتيهم في ديارهم . وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن أميرنا في الأمعان لبلغت فيهم (الرّدْمَ) (٤) قال الملك : « وماهم ؟! » ، فأجابه عبد الرحمن : «أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا في هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائما لهم ، ولا يزال النصر معهم حتّى يغيرهم من يغلبهم ، وحتّى يلفتوا عن حالهم » (٥) .

وغزا عبد الرحمن (بَلَنْجر) غزاة في زمن عمر بن الخطاب ، فقال التّرك : « ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت » فهرب منه التّرك وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر ، بعد أن بلغت خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بَلَنْجَر) ، وعادوا ولم يقتل منهم أحد (٦) .

---

(١) ـ الطبري (٣/٢٣٧) وابن الأثير (٣/٢٨) .
(٢) ـ الفرج : الثغر المخوف . وفروج الأرض : نواحيها .
(٣) الطبري (٣/٢٣٧) وابن الأثير (٣/٢٩) .
(٤) ـ في ابن الأثير (٣/٢٩) : الرذم ، وهذا تصحيف . والردم : يقصد به سد الصين .قال تعالى : (قال مامكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما) ، والاية الكريمة من سورة الكهف (١٨ : ٩٤) .
(٥) ـ الطبري (٣/٢٣٧ـــ٢٣٨) وابن الأثير (٣/٢٩ـــ٣٠) .
(٦) ـ الطبري (٣/٢٣٨) وابن الأثير (٣/٣٠) .

ومن الواضح أن معنويات المسلمين كانت عالية جداً ، لتتابع انتصاراتهم ، ولتمسكهم بدينهم ؛ كما أن معنويات الأمم التي حاربوها كانت منهارة لأن المسلمين غلبوا الأمم التي قاتلوها . لذلك هرب الأتراك من المسلمين وتحصنوا ، فلم يحدث قتال فعلي في هذه الغزوة ، لذلك لم يسقط من المسلمين شهيد .

وكثيراً ماتنتصر الجيوش بالرعب ، كما كان يعبر عنه العرب الأقدمون ، ومعناه : ارتفاع معنويات المنتصر ، وانهيار معنويات المغلوب ، فينتصر المنتصر بمعنوياته العالية ، ويقهر المغلوب برعبه من عدوه المنتصر .

٣ — وغزا عبد الرحمن الترك غزوات في ايام عثمان بن عفان ، كان النصر حليفه فيها ، حتى إذا تبدل أهل (الكوفة) - وجيش عبد الرحمن أغلبه من أهل الكوفة والعراق في خلافة عثمان ، لاستعماله من كان ارتد استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك وزادهم فساداً أن سادهم من طلب الدنيا ؛ فغزاهم عبد الرحمن ، وكان الترك قد اختفوا في الغياض (١) ، وكانوا قد خافوا المسلمين ، واعتقدوا أن السلاح لايعمل فيهم ! واتفق أن تركياً اختفى في غَيْضَة ورشق مسلماً بسهم فقتله ، فنادى في قومه : « إن هؤلاء يموتون كما تموتون ، فلِمَ تخافوهم ؟! » (٢) . فاجترأ الترك على المسلمين وخرجوا عليهم من مكامنهم وأوقعوا بهم . واشتد القتال ، فثبت عبد الرحمن حتى استشهد ، فأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة الباهلي وقاتل بها . ونادى منادٍ « صبراً آل سلمان ! » فقال سلمان : « أوَ ترى جزعاً ! ! » وخرج سلمان ومعه أبو هريرة الدوسي على (جِيْلان) (٣) ، فقطعوها الى (جُرْجَان) (٤) منسحباً

---

(١) - الغياض جمع غيضة ، وهي الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

(٢) - معجم البلدان (٢/٢٧٨) وانظر الطبري (٣/٢٣٨) وابن الأثير (٣/٣٠) .

(٣) - جيلان : اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان ، وليس في جيلان مدينة كبيرة ، انما هي قرى في مروج بين جبال ، والعجم يقولون : كيلان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٩٤) .

(٤) - جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، وهي أكبر مدينة بنواحيها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٧٥—٧٩) .

من معركة خاسرة (١) بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن بنواحي (بلنجر)(٢)، وبهذا الانسحاب انقذ سلمان بقية من جيش أخيه عبد الرحمن .

وفي رواية أخرى ، أن عبد الرحمن حين استشهد انهزم الناس وافترقوا فرقتين فرقة اتجهت نحو (الباب) ، فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن ، وكان قد سيره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان بن عفان ، فلما لقوه نجوا معه ، وفرقة اتجهت نحو (جيلان) و (جُرْجان) (٣) .

والروايتان الأولى والثانية متناقضتان ، ونرجح الرواية الأولى ، لأن الرواية الأولى تدل على (انسحاب) المسلمين من ميدان القتال بقيادة واحدة وسيطرة واحدة باتجاه (جيلان) و (جُرْجان) . أما الرواية الثانية فتدل على (هزيمة) المسلمين باتجاهين : اتجاه (الباب) واتجاه محور (جيلان) (جرجان) . وشتان بين (الانسحاب) و (الهزيمة)

إن الانسحاب أشبه بقتال المسلمين يومئذ ، وذلك في حالة اشتداد الضغط عليهم من العدو وتكبدهم خسائر فادحة بالأرواح . والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئة (٤) من المسلمين ، ليعيدوا الكرة ثانية على عدوهم ، وقد انسحب خالد ابن الوليد من معركة (مُؤتة) في أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنقذ المسلمين من معركة خاسرة .

أما الهزيمة ، فلم يكن المسلمون يرضونها لأنفسهم حينذاك ، لأن هدفهم من الجهاد هو إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ، كما أنهم كانوا يعتبرون الهزيمة

(١) ـ الطبري (٣/٢٣٨) و (٣/٣٥٠) وابن الأثير (٣/٣٠) و (٣/١٣٢) .

(٢) ـ معجم البلدان (٢/٢٧٨) .

(٣) ـ ابن الأثير (٣/١٣٢).

(٤) ـ قال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا فلاتولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .

من الكبائر وهي : التولي يوم الزحف .

كما أن سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن قد جاء مدداً لعبد الرحمن بأمر عثمان ابن عفان فليس من المعقول أن يبقى ومدده في (الباب) ، وليس من المعقول أن يترك أخوه عبد الرحمن هناك وهو يخوض معركة قاسية شرسة ، يكون فيها القائد بأمس الحاجة إلى الجندي الواحد ، فكيف يترك عبد الرحمن جيشاً كاملاً على رأسه أخوه دون أن يستفيد منه في المعركة ؟! .

إن المؤرخين القدامى كانوا يستعملون تعبير : (الهزيمة) ، وهم يريدون بها تعبير (الانسحاب) ، ذلك لأن اكثرهم مدنيون لا يفرقون بين هذين التعبيرين : (الهزيمة) ترك ساحة القتال بدون نظام ولا قيادة فهي كارثة ، و (الانسحاب) ترك ساحة القتال وفق خطة مرسومة بقيادة واحدة فهو - أي الانسحاب - صفحة من صفحات القتال ، الهدف منه إعادة الكرة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عَدداً وعُددا

وعسى ألا يقع المؤرخون المحدثون في مثل هذا الخطأ في التعبير ، فلا يفرقون بين (الهزيمة) و (الانسحاب) ، لأن الفرق بين التعبيرين شاسع بعيد .

الانسان :

كان عبد الرحمن على جانب عظيم من التقوى والخلق الكريم ، وربما كان يصف نفسه بدون ادعاء ولا قصد حين قال للملك (الباب) عن المسلمين الأولين من المهاجرين والأنصار : « . . . كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرمهم بعد اسلامهم ... » وهذا وصف موجز ، ولكنه وصف دقيق لخلق العرب المسلمين حينذاك .

والحق أن تصرّف عبد الرحمن مع المغلوبين ، كان له أكبر الاثر في استتباب الأمن واستقرار النظام وانتشار الاسلام ، فقد كان وفياً غاية الوفاء ، أميناً غاية الأمانة .

أرسل ملك (الباب) رسولاً إلى ملك (الصين) مع هدايا ـ وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده ـ فعاد رسوله من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد . وكان مع الرسول العائد هدايا من ملك الصين ، بينها ياقوتة حمراء ثمينة ، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله في مجلس عبد الرحمن ؛ فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثم ناولها عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن ردها فوراً إلى الملك بعد أن نظر اليها ، فهتف الملك متأثراً وقال : « لهذه ـ يعني الياقوتة ـ خير من هذا البلد ـ أي باب الأبواب وأيم الله لأنتم أحب إلي حكاماً من آل كسرى ، فلو كنتُ في سلطانهم ، ثم بلغهم خبرها ، لأنتزعوها مني ! ! ! وأيم الله ، لا يقوم لكم شيءٌ ما وفيتم ووَفَى ملككم الأكبر » (١) .

كان من حق ملك مدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشد العجب ويدهش أشد الدهشة بأمانة القائد العربي المسلم ووفائه ، فقد عاش هذا الملك عمره كله في دوامة عنيفة من الخيانة وفي جو مشحون بالغدر . فلما رأى أمانة المسلمين المثالية ووفاءهم المطلق ، لم يتمالك نفسه أن نسي ملكه المضاع وملوكه الغابرين ، فعبر عن شعوره بكلمات خارجة من أعماق قلبه إعجاباً بما يرى ويسمع من أمانة ووفاء .

لقد كان عبد الرحمن يعلم ، أن الاستيلاء على الياقوتة التي لاتقدر بثمن ليس من حقه شخصياً ولا من حق بيت مال المسلمين فكانت تلك الياقوتة والتراب عنده سيان .

كان عبد الرحمن كريماً مضيافاً ، شهماً غيوراً ، ورعاً تقياً ، متفقهاً في الدين نقياً ، لايملك شيئاً من حطام الدنيا ـ على الرغم من أنه قضى أكثر عمره غازياً وواليا .

وفي منطقة (بلنجر) نام عبد الرحمن نومته الأبدية في خلافة عثمان بن عفان

(١) ـ الطبري (٣/٢٣٩) .

بعد مضي ثمان سنين من خلافته (١) ، فيكون عبد الرحمن قد استشهد سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢ م) ، لأن عثمان كان قد بويع بالخلافة سنة أربع وعشرين الهجرية (٢) .

وقد بقي والياً على منطقة (الباب) من سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢م) الى سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٢م) في أيام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ، وكان موضع ثقتهما المطلقة .

القائد :

كان عبد الرحمن قائداً عقدياً من الطراز الرفيع ، وكان لتمسكه الشديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء ، بالاضافة الى شجاعته واقدامه وعلمه بأمور الدين . لذلك بقي قائداً لمنطقة (باب الأبواب) ووالياً عليها منذ وفاة سراقة ابن عمرو حتى استشهد ، لم يعزل من منصبه على الرغم من تبدل الخلفاء وتغير الولاة والقادة في الكوفة مرجع عبد الرحمن المباشر .

وكان عبد الرحمن يؤمن بوسائل حرب الفروسية الشريفة ، فلا يخوف ولا يغدر ولا يضرب من الخلف .

وكان رفيقاً رحيماً حتى بأعدائه في ساحة القتال - وذلك بعد أن تنهار مقاومتهم فلا يبقى لهم حول ولا قوة .

وكان يكرم عزيز قوم ذل ، فلا يدعه يشعر بالمهانة والمذلة ، وحسبنا أن نذكر معاملته الكريمة للملك (باب الأبواب) : يحضره مجلسه ، ويستشيره في أمره ، ويعتمد عليه في حرب اعدائه ، ويتركه طليقاً كامل الحرية يسرح ويمرح كما يشاء بين

---

(١) - الاصابة (١٥٩/٤) والاستيعاب (٨٣٢/٢) وابن الأثير (١٣٢/٣) ، وقد ذكر الطبري (٣٥١/٣) أنه استشهد سنة تسع من خلافة عثمان بن عفان ، أي سنة ثلاث وثلاثين الهجرية .

(٢) - الطبري (٣٠٥/٣) وابن الأثير (٧٩/٣) .

قومه من غير رقيب ولا حسيب . ! .

فمن يترك ملكاً خسر ملكه في الحرب في مملكته بالذات وبين قومه ورعيته غير الذين يعتمدون على أنفسهم ويثقون بها ويراعون الجانب الخلقي في الحرب ! !؟؟

تلك الأخلاق المحاربة التي كان يتحلى بها عبد الرحمن ، جعلته موضع ثقة قادته وجنوده وحتى الشعوب والحكام الذين غلبهم في الحرب ، مما سهل عليه مهمته القيادية .

وكان سريع القرار صائبه ، يحب رجاله ويحبونه ، ذا شخصية قوية وارادة نافذة وشجاعة وحكمة ، وكان له ماضٍ ناصع مشرف مجيد .

عبد الرحمن في التاريخ :

لقد كان لسيرة عبد الرحمن الحسنة في منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر وغربه أثر أي أثر في استقرار الأمور واستتباب الأمن والنظام في تلك الربوع فأصبحت تلك المناطق قاعدة أمامية لنشر الاسلام والفتح شمالاً ، فثبت الاسلام في تلك الأصقاع النائية في وجه مختلف المحن والتيارات منذ أربعة عشر قرناً حتى اليـــــوم .

يكفي أن يذكر له التاريخ تضحيته بروحه من أجل عقيدته ، وفتحه مناطق شاسعة نائية لاتزال حتى اليوم تدين بالاسلام .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، القاضي العادل ، العامل الأمين ، القائد الفاتح الفارس الشهيد ، عبد الرحمن ذي النور بن ربيعة الباهلي .

مجلة المجمع العلمي العراقي

المجلد الرابع والعشرون



مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

فهرس المجلد الرابع والعشرين
من مجلة المجمع العلمي العراقي